المحاضرة الثانية: الآداب الشرقية القديمة

تمهيد:

تنوعت التقسيمات والتصنيفات للحضارات المتعاقبة على مدار السنين، إلّا أنّ بعضا من هذه التصنيفات اشتهرت دون أخرى، ومنها: تصنيف الحضارة إلى شرق وغرب، حيث يقصد بالغرب أوروبا خاصة، ثمّ أضيفت إليه أمريكا، أمّا الشرق فيقصد به آسيا مهد الحضارات العريقة، إضافة إلى الحضارة الفرعونية، كما يطلق الشرق أيضا على الحضارة الإسلامية.

أوّلا– الآداب الشرقية القديمة : تتمثل هذه الآداب في الآتي:

أ– الأدب المصري:

– يدخل في إطار الآداب الشرقية القديمة أدب المصريين القدماء، الذي سجل على الآثار وأوراق البردي، وأقدم كتاب مصري انتهى إلينا هو(كتاب الموتى) المدوّن في عصر بناء الهرم الأكبر، يحوي دعوات للآلهة، وأناشيد، وصلوات، ووصف لما تلاقيه أرواح الموتى في العالم الآخر من حساب يتبعه ثواب أو عقاب، وكانت توضع منه (الكتاب) نسخة مع جثمان الميت في قبره، ليكون دليلا للروح يهديها في رحلتها إلى العالم الثاني.

– إلى جانب هذا الأدب الديني لم يعدم المصريون القدماء أن يكون لهم أدب في تمجيد الملوك، وأدب شعبي يروي ما يدور بين الناس من قصص، وأساطير، وحكمة، وقانون.

– فمن أساطير المصريين القدماء قصة: إيزيس وأوزيريس.

– أما في مجال القصة: فمن قصص المصريين القدماء، قصّة(رمسينيت واللّص).

– وكان لهم كذلك: أدب الحكم والمواعظ والنصائح، وخير مثال على ذلك: نصائح(بتّاح حوتب) لابنه، حيث يقول:" إذا أردت حسن الثناء، فتجنّب الطمع، فإنّه داء لا يشفى...".

– كانت للمصريين كذلك أناشيد دينية، وأغاني شعبية، وغزل رقيق.

وعلى الجملة، فقد ظلّت الآداب المصرية تنمو وتتقدّم، وتعمل عملها في النفوس نحو أربعين قرنا، وكانت علاقة المصريين بغيرهم علاقة قويّة إمّا بالحروب، والفتوح للأمم المجاورة، وإمّا بوساطة التجارة الصادرة والواردة، وإمّا بالبعثات إلى مصر لدراسة حضارتها، وعلومها، وفنونها، ودينها، حيث ينقل المبعوثون كل ذلك إلى بلادهم، كلّ ذلك جعل آدابهم تؤثر في الأمم الأخرى كاليونانيين، والرومانيين.

ب– الأدب الصيني:

– كتبت آثار الصين القديمة على ألواح من ألياف الخيزران، يخطّ عليها بالمسمار حينا، وبالمداد آخر، كما كتبوا على نسيج الحرير، وصنعوا الورق في القرن الأول قبل الميلاد، وعرفوا الطباعة بالحروف المتحرّكة، قبل أن تعرفها أوروبا بثلاثة قرون.

– كان الأدب الصيني القديم يدور حول مبادئ الأخلاق والحكمة، وكان الكاتب الصيني يحتلّ في نفوس الناس، وفي نظر الدولة مكانة مرموقة، حيث كانت تجزل له الرواتب العالية.

– بلغ الأدب الصيني من الجودة والتنوّع حدا بعيدا، ولهذا التراث الأدبي القديم من الأثر في نفوس أهل الصين ما جعلهم يحيطونه بشيء من التقديس، ولا يجيزون لأحد الخروج عن قواعده، فهم أكثر سكان الأرض تشبثا بالقديم، وجمودا، ولذلك بقيت اللغة الصينية كما هي لم ينلها تغيير ولا تجديد.

– اتبع الصينيون الديانة الكونفوشيوسية نسبة لواضع أدبها وأخلاقها،"كونفوشيوس"، والذي وجّه اهتمامه فيها نحو مشكلات الحياة: حياة الفرد، وحياة الدولة على حدّ سواء.

ج– الأدب الهندي:

– يتمثّل هذا الأدب القديم في مجموعة الأساطير والأغاني والترانيم والدعوات التي أخذت تتجمع على مرّ السنين، وتكتسب قداسة في أعين الهنود، ومنها يتألّف(الفيدا)، الذي هو وحي من الإله أوحى به إلى قادة العهد الغابر وأنبيائه، وعن هؤلاء تلقّاه البراهمة: وهم طبقة الكهّان الذين أخذوا على عاتقهم مهمة صيانته(الفيدا) من الدنس في اعتقاد الهنود.

– امتاز هذا الأدب القديم بظهور الملاحم الشعرية، منها:(المهابهارتا) التي يمتزج فيها التاريخ بالأساطير، شاعرها(فياسا)، حيث تروي الحروب التي نشبت بين قبيلتي: (بانجالا) و(بهارتا) الهنديتين.

– وإلى جانب المهابهارتا التي لم تستأثر وحدها بألسنة المنشدين، قامت قصيدة (الرامايانا) الأوسع انتشارا بين عامة الهنود، شاعرها(فالميكي)، وهي قصيدة تروي مغامرات (راما)، ومحورها هو الحبّ خلافا للفروسية في الحروب التي كانت أساس(المهابهارتا).

– بالإضافة إلى كتاب (بيوراتا) الذي يقدّسه الهنود، وهو كتاب زاخر بالأساطير، والقصص عن الخلق، والتراتيل الدينية، وحقائق عن تكوين طبقات الأرض، وصخورها، وبعض قواعد الموسيقى، ودروس في قواعد اللغة، ومعلومات فلكية عن مسالك النجوم.

– أما في مجال القصص، والأمثال الهندية، فيطالعنا كتاب(بانجاتانترا)، إلى جانب كتاب (جاتاكا)، وهي قصص عن مولد بوذا، مليئة بالفكاهة، والحكمة العملية، والشواهد المنتزعة من الحياة الشعبية.

د– الأدب الفارسي القديم:

– للفرس أدب ديني عماده "زرادشت" وديانته، وبيان ذلك أنّ الفرس القدماء كانوا يعبدون الأوثان، حتّى ظهر فيهم هذا النبيّ، فجاءهم بالدين والحكمة.

– كان للفرس أربع لغات، ثلاث منها قديمة، ورابعة حديثة(الفارسية الحديثة)، وهي لغتهم اليوم، أمّا اللغات القديمة فهي: الفارسية القديمة، المكتوبة على الأحجار، ولغة الأفستا، واللغة الفهلوية، لغة العلم والأدب.

– عرف الفرس فنّ الملاحم، وملحمتهم الكبرى هي شاهنامة الفردوسي، كونها أوّل كتاب في مستوى رفيع ألّف باللغة الفارسية المستحدثة، وقد أثّرت في كلّ المصنّفات الأدبية التي جاءت بعدها.

والشاهنامة مجموعة من القصص، والملاحم المنظومة التي يدور موضوعها حول بدايات التاريخ الوطني وسيرة الأبطال الأوّلين، وأحداث الحروب مع الترك، والعرب، والإغريق بقيادة الإسكندر، كما يتغنى فيها الفردوسيبالمآثر البطولية التي قام بها الملوك الساسانيون إلى أن انتهت دولتهم، وليست الشاهنامة كلّها حربا، وقتالا، بل يتخلّلها مجموعة من قصص الحبّ، والحكايات، والنوادر.

هـ– الأدب الياباني:

– تأثرت أوائل الأعمال اليابانية الأدبية بالثقافة الصينية، والتي غالبا ما كتبت باللغة الصينية، وعندما بدأت اليابان بفتح أبوابها على الغرب في القرن التاسع عشرة للميلاد، بدأ الأدب الياباني بالتأثر بالأدب الغربي والتأثير فيه.

– من أقدم أنواع الشعر الياباني ما يعرف " بالهايكو " الذي يحاول الشاعر من خلاله التعبير بألفاظ بسيطة عن مشاعر جيّاشة، أوأحاسيس عميقة. وتتألف أشعار الهايكو من بيت واحد مكوّن من سبع عشرة مقطعا صوتيا باليابانية، وتكتب عادة في ثلاثة أسطر(خمسة، سبعة، خمسة).

– اشتهر الأدب اليوناني" بقصة الهائيكي": وهي ملحمة تدور أحداثها في اليابان في العصور الوسطى حول الصراع الدائر بين عشيرتي: " ميتاموتو "،و" الأتائيرا " المسيطرة على اليابان في القرن الثاني عشرة للميلاد، حيث قام مؤلف مجهول بتجميع العديد من الروايات والقصص الشائعة في ذلك العهد، والتي كان يتم تداولها شفويا، وبعد انتهائه من تجميعها قام بتشكيلها وإتمام صياغتها شعريا. ولفظ" هائيكي " هو القراءة الصينية للمقطع الصيني الذي يرمز لاسم عشيرة" التائيرا ".

و– الأدب البابلي:

– تعدّ اللغة البابلية أقدم لغة مكتوبة، ويعرف الخط الذي تكتب به بالخط المسماري .

– كان الأدب في العصر البابلي القديم استمرارا للأعمال الأدبية السومرية ذات التأثير الكبير في بلاد ما بين النهرين عامّة، ثمّ ما لبث أن تحرّر من التقليد إلى الإبداع، حيث ظهرت أعمال أدبيه عكست التطورات المعيشية ونضج اللغة التي باتت تهتمّ بالأسلوب الفنّي والجمالي فكانت:

– الأسطورة مجالا لاستيحاء إجابات عن تساؤلات تراود مخيلة البابليين عن العالم الذي يعيشونه، وعن مسائل مثل: الخلق، الموت، الخلود، الخطيئة والعقاب، كأسطورة عشتار، تموز...إلخ.

– عرف البابليون كذلك فنّ الملاحم أبرزها ملحمة(جلجامش)،التي يدور موضوعها حول فكرة الحصول على الخلود، وكانت متداولة في بدايتها شفويا، ثمّ دونت بعد ذلك باللغة الأكادية، حيث تتغنى هذه الملحمة بقدرة الإنسان على الإتيان بالأعمال العظيمة، والتغلّب على أخطر المخلوقات، والتصدي للآلهة أحيانا، غير أنّه وإن كان جبّارا، فإنّ الآلهة في النهاية هي المسيطرة على مصيره.

– كما عرف في بابل أدب الحكمة الذي يضع في أولياته أهدافا أخلاقية.

أهمية الآداب الشرقية القديمة:

– إنّ الدافع الذي يحثّ المحدثين والمعاصرين على الاهتمام بالآداب القديمة ليس مقصورا على النوعية الممتازة التي تتصف بها الكنوز الفنية الموروثة عن تلك الفترة، بل شمل أيضا تأثير تلك الروائع في الأدب الأوروبي كلّه تأثيرا عميقا.

– كانت أفكار القدماء وتصوراتهم مصدر إلهام أعظم رجالات الأدب، والفنّ، والعلوم أمثال: دانتي،ميلتون،شكسبير، موليير، غوته...إلخ.

– سر جمال الفنّ والأدب القديم يكمن في ارتباطه الوثيق بالظروف الاجتماعية غير الناضجة التي نشأ في ظلّها، حيث لم يكن ممكنا إلّا في تلك الظروف التي لن تتكرّر أبدا.

– تعدّ الآداب القديمة همزة وصل بينها وبين الحاضر عند جميع الشعوب والأمم.

– هي النموذج الكامل المحتذى الذي يؤثر في الآداب القومية الأخرى، حيث يمكننا من التعرّف على الآداب في بدايتها، وتطوّرها، ونموّها.

المصادر والمراجع:

– أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الأدب في العالم، الجزء الأول في الأدب القديم، وأدب العصور الوسطى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (دط)، 1943.

– بديع حقي، قمم في الأدب العالمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،(دط)،1987.

– جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، الكويت، (دط)، 1995.